الكتاب الثالث

سلسلة إحياء تراث فكر الشيخ

محمد تقي الدين إبراهيم النبهاني

التكتل الحزبي

عن الطبعة الأولى

١٣٧٢هـ- ١٩٥٣م

القدس

بسم الله الرحمن الرحيم

التكتل الحزبي

منذ القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) قامت حركات متعددة للنهضة، كانت محاولات لم تنجح، وإن تركت أثراً فعالاً فيمن أتى بعدها، ليعيدوا المحاولات مرة أخرى. ويرى المتتبع لهذه المحاولات، الدارس لهذه الحركات، أن السبب الرئيسي في إخفاقها جميعها يرجع من ناحية تكتلية إلى أربعة أمور:

أولها: إنها كانت تقوم على فكرة عامة غير محددة، حتى كانت غامضة، أو شبه غامضة، علاوة على أنها كانت تفقد التبلور والنقاء والصفاء.

وثانيها: أنها لم تكن تعرف طريقة لتنفيذ فكرتها، بل كانت الفكرة تسير بوسائل مرتجلة وملتوية، فضلاً عن أنه كان يكتنفها الغموض والإبهام.

وثالثها: أنها كانت تعتمد على أشخاص لم يكتمل فيهم الوعي الصحيح، ولم تتمركز لديهم الإرادة الصحيحة، بل كانوا أشخاصاً عندهم الرغبة والحماس فقط.

ورابعها: إن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يضطلعون بعبء

الحركات لم تكن بينهم رابطة صحيحة سوى مجرد التكتل الذي يأخذ صوراً من الأعمال، وألفاظاً متعددة من الأسماء.

ولهذا كان من الطبيعي أن تندفع هذه الكتل فيما عندها من مخزون الجهد والحماس حتى ينفد، ثم تخمد حركتها وتنقرض، وتقوم بعدها حركات أخرى، من أشخاص آخرين، يقومون بنفس الدور، حتى يفرغوا مخزون حماسهم وجهدهم عند حد معين، وهكذا دواليك.

وكان إخفاق جميع هذه الحركات طبيعياً، لأنها لم تقم على فكرة صحيحة واضحة محددة، ولم تعرف طريقة مستقيمة، ولم تقم على أشخاص واعين، ولا على رابطة صحيحة.

أما موضوع الفكرة والطريقة فهو ظاهر في خطأ الفلسفة التي كانت تقوم عليها هذه الحركات، على فرض وجود فلسفة لها. وهذه الحركات كانت إسلامية، وحركات قومية، فكان القائمون على الحركات الإسلامية يدعون إلى الإسلام بشكل مفتوح عام، ويحاولون أن يفسروا الإسلام تفسيراً يتفق مع الأوضاع التي كانت قائمة حينئذٍ، أو التي يراد أخذها من الأنظمة الأخرى، حتى يصلح الإسلام لأن يطبق عليها، وحتى يكون هذا التأويل مبرراً لبقائها أو أخذها. وأما القائمون على الحركات القومية، فقد كان

العرب منهم يدعون إلى قيام نهضة العرب على أساس قومي غامض مبهم، بغض النظر عن الإسلام والمسلمين، وكانوا يعتمدون على ألفاظ القومية، والعزة، والكرامة، والعرب، والعروبة، والاستقلال، وما شابهها، دون أن يكون لهذه الألفاظ أي مفهوم واضح عندهم، يتفق مع حقيقة النهضة. وكان الترك منهم يدعون إلى قيام نهضة الوطن التركي على أساس القومية، ويوجه دعاة القومية من العرب والترك بتوجيه الاستعمار الذي كان يوجه البلقان أيضاً بهذه الحركات القومية لاستقلاله عن الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية.

وقد قامت في العرب بين رجال الحركتين: الإسلامية والقومية، مجادلات كلامية في الصحف والمجلات، تتلخص في أيهما أفضل وأقرب: الجامعة العربية، أم الجامعة الإسلامية؟ ومضت مدة طويلة بذل فيها جهد لم ينتج، لأن كلا من الجامعة العربية والجامعة الإسلامية لا وجود لها فضلاً عن أنها مشروع استعماري لصرف الأذهان عن الدولة الإسلامية. ولذلك لم يقتصر إخفاق الجهد على عدم الإنتاج، بل تجاوز ذلك وأبعد الدولة الإسلامية عن الأعين والأذهان.

وقامت إلى جانب الحركات الإسلامية والحركات القومية حركات وطنية في مختلف البلدان الإسلامية نتيجة

لاستيلاء الكافر المستعمر على أجزاء الدولة الإسلامية، ونتيجة للظلم السياسي والاقتصادي الواقع على الناس من جرّاء تطبيق النظام الرأسمالي عليهم. ومع أن هذه الحركات كانت رجعاً لهذه الآلام فإن منها ما بقيت الناحية الإسلامية تسيطر عليه، ومنها ما كانت الناحية الوطنية البحتة هي التي تسيطر عليه من جرّاء الحركات الاصطناعية التي كان يقوم بها المستعمر. وكان من جرّاء هذه الناحية الوطنية أن اندفعت هذه الحركات وأشغلت الأمة بالكفاح الرخيص التي ثبت أقدام الأعداء فضلاً عما كان ينقصها من وجود أي فكر يسيرها.

إننا نعتقد أن الفلسفة الحقيقية للنهضة هي مبدأ يجمع الفكرة والطريقة معا، وان هذا المبدأ هو الإسلام، لأنه عقيدة ينبثق عنها نظام لجميع شؤون الدولة والأمة، ومعالجة جميع مشاكل الحياة. ومع كونه نظاما ًعالمياً، ليس من طريقته أن يعمل له من البدء بشكل عالمي، بل لا بد أن يدعى له عالمياً، وأن يجعل مجال العمل له في قطر أو أقطار حتى يتمركز فيها، فتقوم الدولة الإسلامية التي تنمو نمواً طبيعياً حتى تشمل جميع البلاد الإسلامية أولاً، ثم تحمله الدولة الإسلامية لباقي أنحاء العالم، باعتباره رسالتها، وباعتباره رسالة إنسانية عالمية خالدة. إن العالم كله مكان صالح للدعوة الإسلامية، غير أنه لما كانت البلاد الإسلامية

يدين أهلها بالإسلام كان لا بد أن تبدأ الدعوة فيها، ولما كانت البلاد العربية بوصفها جزءاً من البلاد الإسلامية تتكلم اللغة العربية، واللغة العربية جزء جوهري في الإسلام، وعنصر أساسي من عناصر الثقافة الإسلامية، كان أولى البلاد بالبدء في حمل هذه الدعوة هي البلاد العربية، وكان لا بد من مزج الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية لتتحد اللغة العربية بالإسلام لما فيهما من القدرة على التأثير والتوسع والانتشار. ولهذا فإن من الطبيعي أن تنشأ الدولة الإسلامية في البلاد العربية لتكون نواة للدولة الإسلامية التي تشمل جميع بلاد الإسلام. ومع أنه من المحتم أن يدعى للاسلام في البلاد العربية، إلا أنه من المحتم كذلك أن ترسل الدعوة إلى سائر البلاد الإسلامية. وليس معنى بدء العمل في البلاد العربية أنه لا يعمل في غيرها قبل أن يتم توحيدها في الدولة الإسلامية، بل يعمل في البلاد العربية لإقامة الدولة الإسلامية، ثم تنمو الدولة فيما جاورها بقطع النظر عن كونه بلداً عربياً أو غير عربي.

قلنا أن الفلسفة الحقيقية للنهضة هي مبدأ يجمع الفكرة والطريقة معاً. وهما لا بد من تفهمهما لكل تكتل يهدف إلى القيام بعمل جدى يؤدي إلى النهضة.

وقد وضح المبدأ وصار تفهمه لأجل التكتل متيسراً. ولذلك فالطبيعي بعد ذلك البيان الشافي للمبدأ، أن يكون

التكتل المسبوق بهذا التفهم تكتلاً مؤثراً، إنشائياً ارتقائياً، جديراً بأن يحتضنه المجتمع ويتكفله، وأن يضطلع بأعبائه، لأنه تكتل هاضم لفكرته، مبصر لطريقته، فاهم لقضيته.

إلا أن مجرد سبق التفهم للتكتل لا يؤدي إلى النهضة الصحيحة إلا إذا كان الأشخاص صالحين لهذا التكتل، وكانت الرابطة التي تربط هؤلاء الأشخاص في كتلة رابطة صحيحة منتجة. وعلى حسب طريقة الربط في التكتل تقرر صلاحية الأشخاص. فالحزب المبدئي يجعل طريقة الربط في تكتله اعتناق العقيدة، والنضج في الثقافة الحزبية. ولذلك تقرر صلاحية الأشخاص طبيعياً، بانصهارهم في الحزب حين تتفاعل الدعوة معهم. فيكون الذي قرر صلاحيتهم هو طريقة الربط، لا هيئة الحزب، لأن الرابطة التي تربط هؤلاء الأشخاص في كتلة هي العقيدة، والثقافة الحزبية المنبثقة عن هذه العقيدة.

وإذا استعرضنا التكتلات التي كانت في الحركات التي ظهرت خلال القرن الفائت نجد أن طريقة تكتلها الفاسدة كانت سبباً رئيسياً لإخفاقها لأنها لم تقم على أساس حزبي مسبوق بتفهم حقيقي، وإنما قامت على أساس جمعي أو أساس حزبي اسما.

وذلك أن المسلمين كانوا قبل الحرب العالمية الأولى يشعرون بأنه توجد لهم دولة إسلامية. وبالرغم من ضعف

هذه الدولة وانهيارها، واختلاف النظرة إليها، فقد كانت تحتل مركز اتجاه الفكر. فيراها العرب هاضمة لحقهم، مسلطة عليهم، ولكنهم كانوا يتجهون بأبصارهم وبصائرهم إليها لإصلاحها، فقد كانت دولتهم على كل حال. وهؤلاء كان ينقصهم فهم حقيقة النهضة، وفهم طريقتها، ولم يحصل بينهم تكتل. ونستطيع أن نحكم بأن هؤلاء هم أكثر المسلمين.

غير أن هذا العصر كانت فيه الثقافة الأجنبية قد غزت البلاد الإسلامية. وبواسطتها استطاع المستعمرون أن يجذبوا إليهم نفرا من المسلمين، أغروهم على إقامة تكتلات حزبية داخل الدولة الإسلامية، تقوم على أساس الانفصال والاستقلال. واستطاع المستعمرون بوجه خاص أن يجذبوا إليهم نفراً من العرب، جمعوهم في باريس، ليكونوا منهم كتلة تقوم بمحاربة الدولة العثمانية، باسم استقلال العرب عنها. وقد جمعت بينهم تلك الثقافة الأجنبية، والأفكار الأجنبية، والمشاعر الوطنية والقومية التي أوجدها عندهم الكافر المستعمر، فكانت رابطتهم العقلية والشعورية رابطة واحدة، ويجمعهم منطق واحد، أدى إلى توحيد الهدف، وهو الاستقلال للشعب العربي، ما دامت الدولة العثمانية تغاضت عن مصالحهم، وأجازت لنفسها ظلمهم، وهضم حقوقهم. فكان هذا الهدف الموحد

أداة تكتلوا عليها تكتلاً حزبياً اسما، أدى إلى اعداد الثـورة العربية، وأنتج ما أنتجه من بسط نفوذ الكفـر والاسـتعمار على البلاد الإسلامية، ولا سيما الـبلاد العربيـة. وانتهـت مهمة هذه الأحزاب عند هـذا الحـد. وتقاسمـت الغنـائم، بوجودها حكاماً على بعض البلدان الإسلامية عملاء لهـذا الاستعمار.

وبعد أن أزيلت الدولة الإسلامية مـن الوجـود قـام الاستعمار مقامها، يحكم الـبلاد العربيـة مباشـرة، ويبسـط نفوذه على سائر البلاد الإسـلامية. فاحتـل الـبلاد العربيـة فعـلاً، وأخـذ يركـز أقدامـه في كـل جـزء منهـا، بأسـاليبه ووسائله الخفية الخبيثة، التي من أهمها الثقافة الاسـتعمارية الأجنبية، والمال والعملاء.

وقد كان للثقافة الأجنبية الأثر الأكبر في تركيز الكفر والاستعمار، وفي عدم نجاح النهضة، وفي إخفاق الحركـات التكتلية، سواء الجمعية والحزبية، لأن للثقافة الأثـر الأكـبر على الفكر الإنساني الذي يؤثر علـى مجرى الحيـاة. وقـد وضع الاستعمار مناهج التعليم والثقافة على أساس فلسفة ثابتة، هي وجهة نظره في الحياة التي هـي فصـل المـادة عـن الروح، وفصل الدين عن الدولة. و جعل شخصيته وحدها الأسـاس الـذي تنتـزع منهـا ثقافتنـا. وجعـل حضـارته ومفاهيمه ومكونات بلاده وتاريخه وبيئته المصـدر الأصـلي

لما نحشو به عقولنا. ولم يكتـف بـذلك، بـل جعـل المغالطـة أيضاً متعمدة فيما ينتزعـه لنـا مـن شخصـيته مـن مفـاهيم وحقائق، وعكس الصورة الاستعمارية على هذه الشخصية بإعطائها الوضع المثالي الذي يقتدى بـه، والوضـع القـوي الذي لا يستغنى عن السـير معـه، مخفيـاً وجـه الاسـتعمار الحقيقي بالأساليب الخبيثة. ثـم تـدخل في تفصـيلات هـذه البرامج حتى لا تخرج جزئية من جزئياتها عـن هـذا المبـدأ العام. ولذلك أصبحنا مثقفين ثقافة فاسـدة، تعلمنـا كيـف يفكر غيرنا، وتجعل فينـا العجـز- طبيعيـاً- عـن أن نـتعلم كيف نفكر نحن، لأن فكرنا غير متصل ببيئتنا، وشخصـيتنا، وتاريخنا، ولا مستمدة من مبدئنا. وبذلك أصبحنا- بوصفنا مثقفين- غرباء عن الشعب، غير واعـين علـى محيطنـا، ولا على حاجاته. وبذلك صـار شـعور المـثقفين منفصـلاً عـن فكرهم وعقلهم، وصاروا- طبيعياً- منفصـلين عـن الأمـة وعن شعورها وأحاسيسها، وصار- طبيعيـاً- أن لا يـؤدي هذا الفكر إلى تفهم صحيح للوضـع القـائم في الـبلاد، ولا يؤدي إلى تفهم صحيح لحاجات الأمة، ولا يؤدي إلى وعي على الطريقة للنهضة، لأنه فكر منفصل عن الشـعور، إن لم يكن خالياً من الشعور، وهو فوق ذلـك كلـه فكـر أجـنبي، يحمله شخص له شعور إسلامي. فصار طبيعياً أن لا يؤدي هذا الفكر إلى تكتل صحيح، مسـبوق بـتفهم صـحيح. ولم

يقتصر أثر الثقافة الأجنبية على المثقفين أنفسهم، بل صار المجتمع بجملته من جرّاء الأفكار التي تحملها هذه الثقافة منفصلاً فكره عن شعوره، وكان من جرّاء ذلك أن تعقدت المشكلة في المجتمع، وتضاعف ثقل العبء في النهضة على التكتل الحزبي الصحيح، عما كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى، إذ بعد أن كانت المشكلة التي تواجهها الأمة أو الحزب هي مشكلة النهضة بالمجتمع الإسلامي صارت المشكلة الآن إيجاد التناسق بين الفكر والشعور عند المثقفين، وإيجاد التناسق بين أفراد المجتمع وجماعته في الفكر والشعور، ولا سيما بين المثقفين ومجتمعهم، لأن هؤلاء المثقفين قد أخلصوا للفكر الأجنبي المجرد، الخالي من الشعور، وحملهم هذا الإخلاص على الوحشة من مجتمعهم واحتقاره، والابتعاد عنه، ومقابلته بعدم الاكتراث، كما حملهم على الأنس بالأجنبي، واحترامه، والتقرب منه، ومقابلته بالاهتمام، ولو كان مستعمراً.

ولذلك لا يمكن لهذا المثقف أن يتصور الأوضاع القائمة في بلاده إلا تقليداً لهذا الأجنبي في تصوره أوضاع بلاده، دون إدراك لحقيقة هذه الأوضاع، ولذلك صار لا يعرف ما ينهض الأمة إلا تقليداً للأجنبي حين يتحدث عن النهضات، ولا تتحرك أحاسيس هذا المثقف من أجل المبدأ، وإنما تتحرك من أجل الوطن والشعب، وهو تحرك

خاطئ. ومع ذلك فإنه لا يثور من أجل بلاده ثورة صحيحة ولا يضحي من أجل الشعب تضحية كاملة، لأنه لا يشعر شعوراً فكرياً بالأوضاع التي تكتنفه، ولا يحس أحساساً فكرياً بحاجات الشعب. ولو فرضنا أنه ثار وطالب بالنهضة فإنها ثورة وليدة صدمة من الصدمات مع مصالحه الخاصة، أو ثورة تقليديه لثورات الشعوب. ولذلك لا تلبث أن تزول حين تذهب الصدمة بإلقامه وظيفة، أو إرضاء نزعاته، أو تزول حين تصطدم بأنانيته ومنافعه، أو يناله منها أذى.

ومثل هذا لا يمكن أن يوجد التكتل الصحيح منه إلا بعد معالجته بإيجاد التناسق بين فكره وبين شعوره بتثقيفه من جديد ثقافة مبدئية صحيحة، أي ثقافة إسلامية. ومعالجته بهذا التثقيف تقضي بأن يفرض تلميذاً يكون عقله تكوينا جديداً، حتى ينتقل بعد حل هذه المشكلة إلى إيجاد التناسق بينه وبين مجتمعه، فيسهل حينئذٍ حل مشكلة النهضة بالمجتمع. ولولا الثقافة الأجنبية لكانت النهضة أقل تكاليف منها الآن.

وعليه فإنه يستحيل مع هذه الثقافة الأجنبية في المجتمع أن يوجد تكتل حزبي صحيح، ولا أن يوجد على أساسها مثل هذا التكتل.

ولم يكتف الاستعمار بهذه الثقافة بل سمم الجو

بأفكار وآراء سياسية وفلسفية أفسد بها وجهة النظر الصحيحة عند المسلمين، وأفسد بها الجو الإسلامي، وبلبل الفكر لدى المسلمين بلبلة ظاهرة في مختلف نواحي الحياة. وبذلك أفقدهم المركز الذي يدور حوله تنبههم الطبيعي. وجعل كل يقظة تتحول إلى حركة مضطربة متناقضة، تشبه حركة المذبوح، تنتهي بالخمود واليأس والاستسلام. فقد استغل الأجنبي جعل شخصيته مركز دائرة الثقافة، وموضع الاتجاه نحوها- استغلها في النواحي السياسية، وجعل قبلة أنظار السياسيين أو محترفي السياسة الاستعانة بالأجنبي والاتكال عليه. ولذلك صارت أكثر التكتلات تحاول- لا شعورياً- أن تستعين بالأجانب. فقام في البلاد من يرى الاستعانة بالدول الأجنبية دون أن يعوا أن كل استعانة بأجنبي، وترويج للاتكال على أجنبي- أياً كان جنسه- يعتبر تسميماً أجنبياً، وخيانة للأمة، ولو عن حسن نية. وصاروا لا يدركون أن ربط قضيتنا بغير أنفسنا يعتبر انتحاراً سياسياً. ولهذا لا يمكن أن يكون هناك نجاح لقيام أي تكتل تسمم فكره بالاتكال على الأجنبي أو الترويج له.

وكذلك سمم المجتمع بالوطنية، وبالقومية، وبالاشتراكية، كما سممه بالإقليمية الضيقة فجعلها محور العمل الآني، وكما سممه أيضاً باستحالة قيام الدولة الإسلامية، وباستحالة وحدة البلاد الإسلامية، مع وجود

الاختلاف المدني والعنصري واللغوي، مع أنها جميعها أمة واحدة، تربطها العقيدة الإسلامية التي ينبثق عنها نظامها. وسممه بغير ذلك أيضاً من الأفكار السياسية المغلوطة، مثل قولهم (خذ وطالب) ومثل (الأمة مصدر السلطات) ومثل (السيادة للشعب) وغير ذلك. وسممه بالأفكار الخاطئة مثل قولهم (الدين لله والوطن للجميع) ومثل (توحدنا الآلام والآمال) ومثل (الوطن فوق الجميع) ومثل (العزة للوطن) وما شابه ذلك. وكذلك سممه بالآراء الواقعية الرجعية مثل قولهم (أننا نأخذ نظامنا من واقعنا) ومثل قولهم (الرضا بالأمر الواقع)، ومثل (يجب أن نكون واقعيين) وما شاكل ذلك.

وكان من جرّاء هذا التسميم أن قام المجتمع في البلاد الإسلامية، ومنها البلاد العربية، على حال لا تؤدي إلى قيام تكتل صحيح. ولذلك لم يكن عجيباً ان أخفقت التكتلات الحزبية اسما جميعها، لأنها لم تقم على أساس فكر عميق، يؤدي إلى تنظيم دقيق، واعداد موثوق به، بل قامت على غير أساس.

ومن هنا كان طبيعياً أن تكون الأحزاب التي قامت في العالم الإسلامي، ولا سيما العالم العربي، أحزاباً مفككة، لأنها قامت على غير مبدأ. ومن تتبعها يرى أنها قد قامت على أساس مناسبات طارئة، أوجدتها ظروف اقتضت قيام

تكتلات حزبية، ثم ذهبت هذه الظروف، فذهبت بذهابها الأحزاب، أو ضعفت وتلاشت. أو قامت على أساس صداقات بين أشخاص، لاءمت بينهم هذه الصداقات، فتكتلوا على أساسها، وانتهى تكتلهم بدورانهم حول أنفسهم. أو على أساس مصالح آنية أنانية، أو غير ذلك. وبهذا لم يكن بين الأشخاص الذين تكتلوا على هذه الأسس، وفي هذه الأجواء والمجتمعات، رابطة حزبية مبدئية، فكان وجودها ليس خالياً من المنفعة فحسب، بل ضاراً بالأمة. وفضلاً عن أن وجودها في المجتمع يحول دون وجود الحزبية الصحيحة، أو يؤخر ظهورها، فإنها تغرس اليأس في نفوس الجمهور، وتملأ قلب العامة بالسواد والشك وتبعث الريبة في كل حركة حزبية، ولو كانت صحيحة. وتبذر بين الناس الحزازات الشخصية، والأحقاد العائلية، وتعلمهم بأساليبها التذبذب والدوران وراء المنفعة. وبعبارة أخرى تفسد على الجمهور طبيعته النقية، وتزيد العبء ثقلاً على التكتلات الحزبية الصحيحة التي لا بد لها أن تنبثق من صميم الجمهور.

وقامت إلى جانب الحركات الإسلامية والقومية والوطنية حركات شيوعية تقوم على اساس المادية. وكانت هذه الحركات تابعة للحركة الشيوعية في روسيا وموجهة بتوجيهها:، وطريقتها الهدم والتخريب. ومن غايتها- مع

إيجاد الشيوعية في البلاد- التشويش على الاستعمار الغربي لصالح المعسكر الشرقي، بوصف القائمين عليها عملاء له، ولم تتجاوب هذه الحركات مع الأمة، ولم تحدث أثراً، وكان إخفاقها طبيعياً، لأنها تخالف فطرة الإنسان، وتناقض عقيدة الإسلام. وقد سخرت الوطنية لمآربها. وكانت عقدة تضاف إلى العقد التي يرزح تحتها المجتمع.

وقد قامت تكتلات أخرى على أساس الجمعيات، فقامت في البلاد جمعيات محلية وإقليمية، تهدف إلى غايات خيرية، فأقامت مدارس ومستشفيات وملاجئ، وساعدت في أعمال البر والخير، وكانت تغلب على هذه الجمعيات الصبغة الطائفية. وقد شجع الاستعمار هذه الجمعيات، حتى ظهرت أعمالها الخيرية للناس. وكانت أكثرها جمعيات ثقافية وخيرية ولم يوجد بينها جمعيات سياسية إلا نادراً.

وإذا نظر بعين التدقيق إلى نتائج هذه الجميعات يرى أنها لم تثمر شيئاً ينفع الأمة أو يساعد على النهضة. وكان ضررها خفياً، بحيث لا يظهر إلا للمدقق، مع أن وجودها من حيث هو ضرر كبير، بغض النظر عن النفع الجزئي، وذلك أن الأمة الإسلامية برمتها، بحكم وجود بعض الأفكار الإسلامية، وبحكم تطبيقها لبعض الأحكام الشرعية، وبحكم تمكن المشاعر الإسلامية فيها بتأثير الإسلام، توجد فيها أحاسيس النهضة، وفيها عاطفة الخير،

وفيها الميل الطبيعي للتكتل، لأن روح الإسلام روح جماعية، فإذا تركت الأمة الإسلامية وشأنها، تحول هذا الإحساس- منطقياً- إلى فكر، وأنتج هذا الفكر عملاً ينهض بالأمة. ولكن وجود الجمعيات حال دون ذلك، لأنها كانت متنفسا لهذا العاطفة المتأججة، وتصريفاً لذلك الإحساس في هذه الجزئية من العمل، وهي جزئية الجمعية. فيرى عضو الجمعية أنه بنى مدرسة، أو أنشأ مستشفى، أو ساهم في عمل من أعمال البر، فيشعر بالراحة والطمأنينة، ويقنع بهذا العمل. بخلاف ما لو لم تنشأ هذه الجمعية، فإن الروح الجماعية تدفعه للتكتل الصحيح، وهو التكتل الحزبي، الذي يوجد النهضة الصحيحة.

وقامت إلى جانب الجمعيات الثقافية والخيرية جمعيات أخلاقية تعمل لنهضة الأمة على أساس الأخلاق بالوعظ والإرشاد، والمحاضرات والنشرات، على اعتبار أن الخلق هو أساس النهضة. وقد بذلت في هذه الجمعيات جهود وأموال، ولكنها لم تكن لها نتائج هامة، ونفست عاطفة الأمة بهذه الأحاديث المملولة المكررة المبتذلة. وقد كان قيام مثل هذه الجمعيات مبنياً على الفهم المغلوط لقوله تعالى مخاطباً الرسولﷺ ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ مع أنه وصف لشخص الرسول وليس للمجتمع، ولقوله عليه السلام "إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق" ولقوله عليه السلام "إنما بعثت لأتمم

مكارم الأخلاق" مع أن هذين الحديثين وأمثالهما مما يتعلق بصفات الفرد لا بالجماعة. ومبنياً كذلك على خطأ الشاعر في قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

مع أن الأمم لا تكون بالأخلاق، وإنما تكون بالعقائد التي تعتنقها، وبالأفكار التي تحملها، وبالأنظمة التي تطبقها وكان كذلك مبنياً على الفهم المغلوط لمعنى المجتمع، من أنه مكون من أفراد، مع أن المجتمع هو كل مكون من أجزاء هي: الإنسان، والأفكار، والمشاعر، والأنظمة، وفساده إنما هو آت من فساد الأفكار والمشاعر والأنظمة، لا من فساد الإنسان. وإصلاحه إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته.

وكان كذلك مبنياً على ما تركز في الأذهان لدى كثير من المصلحين وعلماء الأخلاق، من أن الجماعة إنما يهدمها الفرد، والفرد إنما تبنيه وتهدمه أخلاقه، فالخلق القويم يجعله قوياً، مستقيما، فعالاً، منتجاً، عاملاً للخير والصلاح والإصلاح.

والخلق الذميم يجعله ضعيفاً مسترخياً، لا نفع منه، ولا خير فيه، ولا هم له في الحياة إلا إشباع شهواته، وإرضاء أنانيته، ولذلك رأوا أن إصلاح الجماعة إنما يأتي من طريق إصلاح الفرد، فأرادوا إصلاح المجتمع بالمنهج الأخلاقي وتوسلوا بالأخلاق إلى إنهاض الأمة.

وبالرغم من إخفاق جميع الحركات الإصلاحية التي قامت على أساس القاعدة الخلقية فإن الناس لا يزالون مقتنعين بأن هذه القاعدة هي أساس الإصلاح، وأقاموا الجمعيات الإصلاحية على هذا الأساس. مع أن الحقيقة أن وسائل إصلاح الجماعة غير وسائل إصلاح الفرد ولو كان جزءاً من الجماعة، لأن فساد الجماعة آت من فساد مشاعرها الجماعية ومن فساد أجوائها الفكرية والروحية، وآت أيضاً من وجود المفاهيم المغلوطة عند الجماعة، وبعبارة أخرى آت من فساد العرف العام. وإصلاحها لا يأتي إلا بإيجاد العرف العام الصالح. وبتعبير آخر لا يأتي إلا من إصلاح مشاعر الجماعة، وإيجاد الأجواء الروحية الصحيحة، والأجواء الفكرية التي تتصل بالناحية الروحية، وتطبيق النظام من قبل الدولة.

ولا يتأتى ذلك إلا بإيجاد الأجواء الإسلامية، ولا بد من تصحيح المفاهيم للأشياء عند الناس كافة. وبهذا تصلح الجماعة، ويصلح الفرد، ولا يتأتى ذلك بالتكتل على أساس الجمعية، ولا بجعل الأخلاق والوعظ والإرشاد أساساً للتكتل.

ومن هنا جاء إخفاق جميع التكتلات على أساس الجمعيات في احداث نهضة أو إصلاح، كما جاء إخفاق جميع التكتلات على أساس التسمية الحزبية، التي لم تبن على مبدأ معين، ولم تسبق بتفهم ما، ولم تجعل رابطتها مبنية على جامع صحيح بين الأفراد.

على أن إخفاق جميع هذه التكتلات كان محققاً أيضاً من ناحية أفرادها، لأنها فضلاً عن قيامها على غير أساس تكتلي صحيح، لعدم وجود الفكرة والطريقة، ولخطأ الطريقة في التكتل، فإنها لم تكن تقيم تكتلاتها على أساس صلاحية الفرد الذاتية، وإنما كانت تقيمها على أساس مكانته في المجتمع، وإمكان وجود الفائدة المعجلة من وجوده في الحزب أو الجمعية.

فقد كان العضو يختار على أساس أنه وجيه في قومه، أو غني بين جماعته، أو محام، أو طبيب، أو ذو مكانة ونفوذ، بغض النظر عن كونه صالحاً لهذه الكتلة التي يختار لها أم غير صالح. ولذلك كان يغلب على هذه التكتلات التفكك بين أعضائها، كما يغلب عليها الناحية الطبقية. فأعضاء الحزب أو الجمعية يداخلهم شعور خفي بأنهم يمتازون عن باقي الشعب، لا بمالهم ووجاهتهم فحسب، بل بكونهم أعضاء في الحزب أو الجمعية. ولذلك لا يحصل بينهم وبين الشعب أي تفاعل أو تقارب. فيكون وجود الجمعية أو الحزب ضغثاً على إبّالة، وعقدة جديدة تضاف إلى العقد التي يرزح تحتها هذا المجتمع.

ولهذا نستطيع أن نقول بعد الدراسة والتفكر والاستقراء أن البلاد الإسلامية جميعها لم ينشأ فيها خلال القرن الفائت أي تكتل صحيح، يؤدي إلى نهضة. وجميع التكتلات التي حصلت أخفقت لقيامها على أساس مغلوط، مع أن الأمة لا تنهض إلا

بالتكتل، فما هو التكتل الصحيح الذي يسبب نهضة الأمة؟ هذا ما نحتاج لبيانه.

ان التكتل الصحيح الذي تنهض الأمة به لا يجوز أن يكون على أساس الجمعية، التي يحتم نظامها الجمعي أن تقوم بأعمال وأقوال، أو بأعمال فقط أو بأقوال فقط. وهذا النوع من التكتل لا يجوز أن يشجع في الأمة التي تود النهوض ولا يجوز أن يكون على أساس الأحزاب غير المبدئية، كالتي قامت في العالم الإسلامية منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن.

وإنما التكتل الصحيح هو الذي يقوم على أساس حزبي مبدئي إسلامي، تكون الفكرة هي الروح لجسم الحزب، وهي نواته، وهي سر حياته. وتكون خليته الأولى إنساناً تتجسد فيه فكرة وطريقة من جنسها، حتى يكون إنساناً من جنس الفكرة في نقائه وصفائه، ومثل الطريقة في وضوحه واستقامته. ومتى وجدت هذه الأشياء الثلاثة: الفكرة العميقة، والطريقة الواضحة، والإنسان النقي، فقد وجدت الخلية الأولى. ثم لا تلبث هذه الخلية أن تتكاثر إلى خلايا تكون هي الحلقة الأولى للحزب "قيادة الحزب". ومتى وجدت الحلقة الأولى فقد نبتت الكتلة الحزبية، لأن هذه الحلقة لا تلبث أن تتحول إلى كتلة. وحينئذٍ تحتاج هذه الكتلة إلى رابطة حزبية، تجمع بين الأشخاص الذين يعتنقون الفكرة والطريقة، هذه الرابطة الحزبية هي العقيدة التي تنبثق عنها فلسفة الحزب، والثقافة التي

يتسم بمفاهيمها الحزب، وحينئذٍ تكون الكتلة الحزبية قد تكونت، وسارت في معترك الحياة. فتتقلب عليها الأجواء حارة وبارد، وتهب عليها الرياح عاصفة ولينة، وتتناوبها الأجواء صافية وملبدة. فإذا ثبتت لهذه العوامل فقد تبلورت فكرتها، ووضحت طريقتها، وأعدت أشخاصها، وقوت رابطتها، واستطاعت أن تخطو الخطوة العملية في الدعوة والعمل من كتلة حزبية إلى حزب مبدئي متكامل يعمل للنهضة الصحيحة. هذا هو التكتل الصحيح الذي تكون نواته الفكرة، لأنها أس الحياة.

أما كيف ينشأ هذا التكتل الحزبي المبدئي في الأمة التي تريد النهوض نشوءاً طبيعياً، فهاك البيان:

الأمة جسم واحد لا يتجزأ، وهي في تكوينها الكلي كالإنسان. فكما أن الإنسان إذا مرض مرضاً شديداً أشفى منه على الموت، ثم أخذت تدب الحيوية فيه، فإنها تدب فيه كله بوصفه كلا، وكذلك الأمة المنحطة تعتبر مريضة. وإذا دبت الحيوبة فيها تدب فيها جميعها بوصفها مجموعة إنسانية واحدة باعتبارها كلا. والحياة للأمة هي الفكرة التي تصحبها طريقة من جنسها، لتنفذ بها، فيتكون من مجموعهما ما يسمى المبدأ.

وليس مجرد وجود المبدأ في الأمة كافياً لبعث الحياة فيها بل اهتداؤها للمبدأ، ووضعه موضع العمل في حياتها، هو الذي يجعلها حية، إذ قد يكون المبدأ موجوداً عند الأمة في

تراثها التشريعي والثقافي والتاريخي ولكنها في غفلة عنـه، أو في غفلة عن فكرته، أو عن طريقته، أو في غفلة عن ربطهمـا معـاً. وفي هذه الحالة لا يؤدي مجرد وجود الفكرة والطريقة إلى نهضة.

والحيوية تدب في الأمة عادة حين تحصل هزات عنيفة في المجتمع، ينتج عنها إحساس مشترك. وهذا الإحساس الجمـاعي يـؤدي إلى عمليـة فكريـة تنـتج قضـايا مـن جـرّاء البحـث في الأسباب والمسببات لهذه الهزة، والوسائل القريبة والبعيدة الـتي تُنَفَّذُ بها. وتكون هذه القضايا مصحوبة ببراهينها، فينـتج عنهـا وعن منطقها الطبيعي الفكر الصحيح. ويظل هذا الفكر متصلاً بالمنطق، أي متصلاً بالقضايا مع براهينها. وبدوام هذا الاتصال يتسع الفكر، إلى أن يشمل ماضي الأمة وحاضرها ومسـتقبلها، وتاريخ الشعوب والأمم ووقائعه وحوادثه، وأفكـار الشـعوب والأمم ووسائل نهضاتهم، والمقارنات والمفاضـلات. وفي هـذه الحال يهتدي العقل إلى المبدأ بفكرته وطريقته، فيدركـه ويـؤمن به، بعد أن تـبرهن القضـايا المنطقيـة علـى صـحته وصـلاحيته وإنتاجه، ويكون الاهتداء إلى هذا المبدأ جماعياً في الجماعـة، لأن إحساسها الكلي أدى إليه.

إلا أن هــذا الإحســاس وإن كــان واحــداً مشــتركاً في الجماعة بين أفرادها، فإنه يكون بنسب مختلفة بين الناس، علـى مقدار ما هيـأهم الله لـه، بمـا حبـاهم مـن اسـتعدادات ممتـازة، ولذلك يظل اهتداؤها للفكرة كامناً فيها إلى أن يتجمـع تـأثيره،

فيتركز فيمن نالوا قدراً أعلى من الإحساس، فيوقظهم ويلهمهم، ويبعث فيهم الحركة، فتظهر أعراض الحياة فيهم أولاً.

هؤلاء الذين نالوا قدراً أعلى من الإحساس تنطبع فيهم إحساسات الجماعة، وتتمركز فيهم الفكرة، فيتحركون حركة وعي وإدراك، وهم عيون الأمة، والثلة الواعية فيها.

إلا أن هذه الثلة الواعية تكون قلقة متحيرة، تبصر دروباً متعددة، وتتحير أي الطرق تسلك. ولكن حركة الوعي هذه، في هذه الثلة الجماعية، تختلف نسبها فيها. فيكون منطق الإحساس في بعضها أقوى منه في البعض الآخر، فيقوم من هذه الثلة الواعية فئة مختارة ممتازة، تختار بعد الدراسة والعمق في البحث درباً من الدروب، وتبصر الغاية التي توصل إليها، كما تبصر وضوح الطريق، فتسلكها، وتسير نحو غايتها، وبذلك تهتدي إلى المبدأ بفكرته وطريقته، وتعتقده عقيدة راسخة، فيتجسد فيها، ويصبح عقيدة لها. وتكون هذه العقيدة مع ثقافة الحزب هي الرابط بين أشخاص هذه الفئة.

وحين يتجسد المبدأ في الأشخاص لا يطيق أن يبقى حبيساً، بل يسوقهم إلى الدعوة له سوقاً. فتصبح أعمالهم متكيفة به، سائرة حسب منهجه، متقيدة بحدوده، ويصبح وجودهم من أجل المبدأ، ومن أجل الدعوة له، والقيام بتكاليفه، وهذه الدعوة تهدف إلى اعتناق الناس لهذا المبدأ

وحده دون غيره، وإلى إيجاد الوعي العام به. فتتحول الحلقة الأولى إلى كتلة، ثم تتحول الكتلة إلى حزب مبدئي يأخذ في النمو الطبيعي في ناحيتين إحداهما التكاثر في خلاياه بإيجاد خلايا أخرى تعتنق المبدأ عن وعي وإدراك تامين، والثانية إيجاد الوعي العام به عند الأمة كلها. ويتكون من هذا الوعي العام على المبدأ توحيد الأفكار والآراء والمعتقدات عند الأمة، توحيداً جماعياً إن لم يكن توحيداً إجماعياً. وبذلك يتوحد هدف الأمة، وتتوحد عقيدتها، ووجهة نظرها في الحياة. وبهذا يكون الحزب بوتقة تصهر الأمة، فينقيها من الادران والمفاسد التي أدت إلى انحطاطها، أو تولدت عندها أثناء انحطاطها. وهذه العملية الصهرية يتولاها الحزب في الأمة، وهي التي تسبب النهضة. وهي عملية شاقة. ولذلك لا يقدر عليها إلا الحزب الذي يعيش بفكرتها، ويجعل حياته وقفاً عليها، ويدرك كل خطوة من خطواته.

وذلك أن الإحساس الذي يؤدي إلى فكر في الحزب، يشرق هذا الفكر في الأمة بين أفكار متعددة، فيكون واحداً منها، ويكون أول أمره أضعفها، لأنه أحدث ولادة، وأجد وجوداً، ولم يتمركز بعد، ولم توجد له أجواء، ولكنه لما كان فكراً نتيجة منطق الإحساس، أي فهما ناتجاً عن الإدراك الحسي، فإنه يوجد الإحساس الفكري أي يوجد إحساساً واضحاً نتيجة للفكر العميق، فكان- بطبعه- يصفي من ينطبع

به، فيجعله مخلصاً، حتى لو أراد أن لا يكون مخلصاً لا يقدر على ذلك. ويتجسد هذا الفكر عقيدة وثقافة في المخلص، فيحدث من نفسه ثورة جامحة. وليست هذه الثورة سوى انفجار بعد احتراق في الشعور والفكر، يشيع في الدعوة التلهب والحماس والصدق، كما يشيع فيها- في نفس الوقت- المنطق والفكر، ويكون ناراً تحرق الفساد، ونوراً يضي طريق الصلاح، وبهذا تقع الدعوة في صراع مع الأفكار الفاسدة، والعقائد المتداعية، والعادات البالية، فتحاول أن تدافع عن نفسها، ولكن نفس دفاعها يكون احتكاكاً بالمبدأ الجديد، يزيد في قوته. وما هي إلا فترة صراع قصيرة، حتى تتداعى جميع الأفكار والعقائد والطرق، ويبقى مبدأ الحزب وحده في الأمة، هو فكرها، وهو عقيدتها.

ومتى وحد الحزب الأفكار والمعتقدات والآراء فقد صنع اتحاد الأمة على عين بصيرة، وصهرها ونقاها، فكانت أمة واحدة، وبذلك توجد الوحدة الصحيحة.

ثم تأتي المرحلة الثانية للحزب، وهي قيادة الأمة للقيام بالعمل الإصلاحي الانقلابي، لينهض بالأمة، ثم يحمل معها رسالة الإسلام إلى غيرها من الشعوب والأمم، لتؤدي واجبها إلى الإنسانية.

وهذا التكتل الحزبي هو حركة جماعية، ولا يمكن إلا أن يكون حركة جماعية، لأن التكتل الصحيح لا يكون حركة

فردية. ولذلك كان لزاماً على القائمين على الحزب في البلاد الإسلامية أن يبحثوا البحث الدقيق عن الحركات الجماعية، وأن يفهموها فهماً عميقاً.

وفهم الحركات الجماعية التي لها قوة التأثير في عصرها، يرينا أنها لا تنشأ حين يكون الرخاء ميسوراً، والحقوق الطبيعية للإنسان محققة، والرفاهية متوفرة، وحين تكون الكفاية الشخصية هي المقياس لتولي الأمور الهامة، وهذا الفهم للحركات الجماعية، يسهل علينا أن نزن كل حركة جماعية بميزانها السوي، بدراسة البيئة التي عاشت أو تعيش فيها الحركة، والظروف التي لابستها أو تلابسها، ومدى عمل الأفراد النابهين في تسيير أمرها، وتسهيل مهمتها في القضاء على ما يعوق نجاحها أو يعرقل سيرها.

ويقاس نجاحها بقدرتها على إثارة روح الامتعاض في الناس، وحثهم على إظهار امتعاضهم كلما جد من السلطة الحاكمة أو النظام القائم ما يمس مبدأها هذا، أو يتحكم به وفق مصالح السلطة وهواها.

وفهم هذه الحركات الجماعية يقتضينا دراسة الحياة في المجتمع، ومعرفة علاقة الأمة بالحاكمين، وعلاقة هؤلاء الحاكمين بالأمة، وقوام كل منهما، وحقيقته التامة في نظر الإسلام، والآراء والأفكار والأحكام التي دعا إليها، وموازنة ما عليه المجتمع، وما تعرضت له هذه الآراء والأفكار والأحكام،

من تغيير وتبديل واجتهاد، وحقيقة هذا الاجتهاد في الفروع والأصول، وهل يقره الإسلام أم لا يقره. كما يقتضينا فهمها دراسة الحالة النفسية للأمة، وهي تشاهد هذه الآراء والأفكار والأحكام الإسلامية تغيض في هذه الدنيا التي تعيش عليها، والتي يقيمها لها نظام الحياة، ونظام الحكم، بالسيف والمكر والمال.

ويقتضينا فهمها كذلك معرفة ميل الأمة نفسها بوجه عام، ونظرتها لهذه النظم التي تطبق عليها، والتي تهدد إسلامها بالزوال، وترديها هي في هوة الشقاء والتعاسة، ثم معرفة ميل المفكرين في الأمة ومدى تقبلهم للنظام الفاسد الذي يطبق عليهم، وهل أثار فيهم التذمر، ومعرفة مدى تأثرهم بالإغراء والتهديد، ومدى انسياقهم مع هذا الإغراء، وخضوعهم لهذا التهديد.

ثم معرفة الكتلة الحزبية نفسها، والتحقق من أنها تتمتع بالإحساس المرهف، والتفكير العميق، والإخلاص الخالص، ومن أن الإجراءات التي تقوم في المجتمع لم تضعف إيمانها بالإسلام وشرائعه، وأن جميع ما يحصل من إغراءات وتهديدات وإرهاب، ومنح ومحن، لم يؤثر فيها مطلقاً، ثم التحقق من أن هذه الكتلة محافظة على قيمتها الذاتية تمام المحافظة، وان منطقة إيمانها آمنة، وأن تشبعها بالأفكار الإسلامية العميقة، وتبنيها للمصالح العامة، وشعورها بالمسئولية- كل ذلك كامل، بحيث

تجعل المبدأ في حصن حصين مهما لحقها من عسف وجور وشدة وإرهاب، ثم التحقق من أن هذه الفئة قد وطدت عزمها على أن تضطلع بالمسؤولية، مع تقديرها لجميع النتائج واستعدادها لتحملها.

وهذا البحث في الحركات الجماعية تاريخياً وواقعياً، يرشد إلى حقيقة سير الحزب المبدئي، باعتباره حركة جماعية، والتأكد من كونه مستكملاً شرائطه، سائراً في طريقه الطبيعي. حتى إذا لوحظ فيه تنكب، أو لوحظ أن الدراسات كانت تقتضي تعديلاً في الجهاز، أو مرونة في السير، أو صلابة في الكفاح، اتبعت الأساليب التي تضمن له أداء رسالته في إنهاض الأمة، وفي جعلها حاملة لهذه الرسالة لجميع الشعوب والأمم.

ويسير تكتيل الحزب تكتيلاً صحيحاً في الطريق الآتي:

١- الاهتداء إلى المبدأ من قبل شخص فائق الفكر والإحساس، فيتفاعل معه، حتى يتبلور فيه، ويصبح واضحاً لديه، وحينئذٍ توجد واقعياً الخلية الأولى، ولا تلبث أن تتكاثر هذه الخلية تكاثراً بطيئاً، فيوجد أشخاص آخرون، يكوّنون خلايا، ويتصلون ببعضهم اتصالاً كلياً بالمبدأ، فيتكون منهم الحلقة الأولى للكتلة الحزبية "قيادة الحزب"، ولا بد أن يكون المبدأ وحده دون غيره محور التكتل بين هؤلاء الأشخاص وأن يكون هووحده أيضاً القوة الجاذبة لهم حوله.

٢- هذه الحلقة الأولى تكون- عادة- قليلة العدد، بطيئة الحركة في أول الأمر، لأنها مع كونها تعبر عن إحساس المجتمع الذي تعيش فيه، فإن تعبيرها يكون بألفاظ ومعان تخالف ما اعتاد المجتمع سماعه من ألفاظ ومعان، وتكون لها مفاهيم جديدة، تخالف مفاهيم المجتمع السائدة، وإن كانت تعبر عن أحاسيسه. ولذلك تكون هذه الحلقة كأنها غريبة عن المجتمع، ولا ينجذب إليها في أول الأمر من الناس إلا من كان فيه الإحساس قوياً، إلى حد أنه أوجد فيه قابلية الانجذاب إلى مغناطيس المبدأ المتجسد في الحلقة الأولى.

٣- يكون تفكير هذه الحلقة الأولى "القيادة" -عادة- عميقاً، وطريقتها في النهضة جذرية، أي تبدأ من الجذور. ولذلك ترتفع هذه الحلقة عن الواقع السيء الذي تعيش عليه الأمة، وتحلق في الأجواء العليا، وتبصر الواقع الذي تريد نقل الأمة لتعيش عليه، أي تبصر الحياة الجديدة التي تريد نقل الأمة إليها، كما أنها تبصر الطريق الذي تسلكه لتغيير هذا الواقع، ولذلك فهي تبصر ما وراء الجدار، في حين أن أكثر المجتمع الذي تعيش فيه يبصر أمامه فقط، وبحكم التصاقه بالواقع السيء الذي هو فيه يتعذر عليه التحليق، فيصعب عليه إدراك تغيير الواقع إداركاً صحيحاً، لأن المجتمع المنحط يكون الفكر عنده في بداءته، ويستمد صوره كلها من واقعه، ثم يقيس عليه

الأشياء قياساً شمولياً مغلوطاً، ويكيف نفسه حسبه، ولذلك يجعل منافعه دائرة مع هذا الواقع.

أما الحلقة الحزبية الأولى فإنها تكون في فكرها قد تجاوزت الدور البدائي، وسارت في طريق التكامل. فتجعل الواقع موضع التفكير لتغييره حسب المبدأ، لا مصدر التفكير، بجعل المبدأ دائراً مع الواقع، ولذلك تحاول تغيير الواقع وتشكيله وإخضاعه لإرادتها، لتجعله دائراً مع المبدأ الذي تعتنقه، لا لتجعل المبدأ دائراً مع الواقع. ولذلك يكون بين المجتمع وبين الحلقة الأولى للحزب تباين في فهم وجهة النظر في الحياة، يحتاج إلى التقريب.

٤- ان فكر الحلقة الحزبية الأولى (القيادة) يستند إلى قاعدة ثابتة، وهي أن الفكر لا بد أن يتصل بالعمل، وإن الفكر والعمل لا بد أن يكونا من أجل غاية معينة يهدفان إليها. ولذلك يوجد عندها من جرّاء تجسد المبدأ فيها، ومن جرّاء استناد الفكر إلى قاعدة- يوجد من جرّاء ذلك جو إيماني ثابت، وهو يساعد على إخضاع الواقع وتغييره، لأن هذا الفكر لا يتشكل بشكل ما يمر به، بل يشكل ما يمر به بشكله هو، بخلاف المجتمع المنحط، فإنه لا توجد لفكره قاعدة، لأنه بمجموعه لا يعرف الغاية التي يفكر ويعمل من أجلها، وتكون الغاية عند أفراده آنية أنانية. ولذلك لا يوجد عنده جو إيماني، فيضطر لأن يتشكل هو بما يحيط به، لا أن يشكله بشكله، ومن هنا يأتي

التضارب بين الحلقة الأولى للحزب وبين المجتمع الذي تعيش فيه في أول الأمر.

٥- بما أن من واجب الحلقة الحزبية الأولى (القيادة) أن توجد الجو الإيماني الذي يفرض طريقة من التفكير، فعليها أن توجد حركات مقصودة، لتنمية نفسها تنمية سريعة، ولتنقية جوها تنقية تامة، حتى تبنى جسمها الحزبي بناء سليماً، وبسرعة فائقة، وأن تتحول- بتطور سريع- من حلقة حزبية إلى كتلة حزبية، ثم إلى حزب متكامل، بفرض نفسه على المجتمع، بحيث يصبح فاعلاً في المجتمع، لا منفعلاً فيه.

٦- هذه الحركات المقصودة تتكون بالدراسة الواعية للمجتمع وللأشخاص وللأجواء، وبالرقابة الحذرة من أن يتسلل إلى كيان الحزب عنصر فاسد، ومن أن يحصل الخطأ في تركيب جهاز من أجهزة الحزب التي يكون التكتل حسبها، حتى لا يميل به إلى وجهة غير وجهته الصحيحة، وحتى لا ينشطر الحزب على نفسه.

٧- يجب أن تكون العقيدة الراسخة الثابتة، والثقافة الحزبية الناضجة هي الرابط بين أعضاء الحزب، وأن تكون هي القانون الذي يسير جماعة الحزب، لا القانون الإداري المسطر على الورق. وطريقة تقوية هذه العقيدة والثقافة هي الدراسة والفكر، ليتكون العقل تكويناً خاصاً، وليوجد الفكر المتصل بالشعور، ولا بد من بقاء الجو الإيماني مخيماً على الحزب

جماعياً، حتى يكون الجامع للحزب شيئين اثنين هما القلب، والعقل. ولذلك لا بد من الإيمان بالمبدأ حتى يبدأ القلب جامعاً بين أفراد الحزب، ثم دراسة المبدأ دراسة عميقة، وحفظها واستظهارها وفهمها، ليتكون الرابط الثاني وهو العقل. وبذلك يعد الحزب اعداداً صحيحاً، وتكون رابطته متينة متانة تمكنه من الثبات أمام جميع الزعازع.

٨- تشبه قيادة الحزب "الحلقة الأولى للحزب" الموتور الصناعي من جهة، وتخالفه من جهة أخرى. ووجه شبهها فيه هو:

ان الموتور الصناعي للغاز مثلاً، له طاقة حرارة، تتولد من الشعلة والبنزين في الحركة الموتورية. وهذه الطاقة الحرارية تنتج ضغطاً في الهواء. وهذا الضغط يدفع الذراع، وهو المحرك، وهو الذي يفرض حركته على القطع الأخرى، فتدور الآلة. وعليه فإن وجود الشعلة والبنزين والحركة الموتورية هو الأصل، لأنه بتوليده لطاقة الحرارة ينتج ضغطاً، وهذا الضغط يفرض حركته على باقي القطع، ويدير الموتور. فإذا وقفت حركة الموتور وقفت جميع القطع. وإذن لا بد من وجود الشعلة والبنزين والحركة الموتورية حتى يدور الموتور، ويدير جميع الآلة، وكذلك القيادة للحزب (الحلقة الأولى للحزب) فإن الفكرة فيها بمقام الشعلة، والإحساس في الأشخاص الواعين في القيادة بمنزلة البنزين، والإنسان الذي يتأثر إحساسه بالفكرة

هو الحركة المتورية. وعليه فالفكرة حين تتصل بالإحساس في الإنسان توجد طاقة الحرارة، فتدفع القيادة إلى الحركة. وحركتها هذه تفرض على سائر قطع الحزب، من أفراد، وحلقات، ولجان محلية، وغير ذلك، فتتأثر بحرارتها، فتتحرك، وتدور جميعها، دوران الآلة، وهنا يبدأ سير الحزب بالحركة، فيأخذ دور النمو في تشكيله.

وعليه فلا بد من انبعاث طاقة الحرارة من القيادة لسائر أجزاء الحزب حتى تدور، كما أنه لا بد من حركة الموتور حتى تدور الآلة. وهذا وجه الشبه بين الموتور الصناعي وبين قيادة الحزب. وعلى ذلك يجب أن يلاحظ قادة الحزب هذه الناحية، ويوالوا اتصالاتهم وحركاتهم بباقي أجزاء الحزب، لتؤثر حرارة القيادة في الجميع. فإذا اتصلوا عدة مرات، ورأوا أن باقي الأعضاء واللجان لم تتحرك إلا إذا حركوها، فلا ييأسوا، وليعلموا أن ذلك طبيعي، لأن الآلة لا تدور إلا إذا دار الموتور، وبعثت الحرارة منه.

إلا أن القيادة (الحلقة الأولى للحزب) لا يكون تحريكها مؤثراً بفرض الحركة على الحزب، كما يفرض المحرك حركته على باقي القطع في الموتور الصناعي، بل يكون تحريكها كذلك في أول الأمر فحسب، أما بعد سير الحزب فلا يكون كذلك. ومن هذه الجهة تخالف القيادة (الحلقة الأولى للحزب) الموتور الصناعي، فإن الموتور الصناعي يظل دائماً المحرك للآلة، وأما

القيادة فإنها موتور اجتماعي، وليست موتوراً صناعياً، وأعضاء الحزب وحلقاته ولجانه المحلية هم من بني الإنسان، لا من الحديد، وفيهم الحياة، ويتأثرون بحرارة القيادة، أي يتأثرون بحرارة المبدأ الذي يتجسد في القيادة (الحلقة الأولى للحزب)، ولهذا فإنهم بعد تفهمهم للفكرة، واتصالهم بحرارة القيادة الحزبية، يصبحون جزءاً من الموتور، ويصبح حينئذٍ مجرد حركة القيادة من جرّاء طاقة الحرارة يبعث الحركة في الحزب كله بعثاً طبيعياً، لأنها- وهي موتور اجتماعي- تكون كلا فكرياً شائعاً في جميع الحزب. وحينئذٍ لا تبقى القيادة وحدها هي التي تحمل الحركة الموتورية، بل- بنموها وتكامل تشكيل الحزب- يكون الحزب حاملاً للحركة الموتورية. وعلى ذلك فلا يحتاج سير الحزب إلى حركة القيادة، ولا إلى بعث حرارتها، بل يسير المبدأ في أعضاء الحزب، وتسير حلقاته ولجانه المحلية، سيراً آلياً، دون حاجة إلى حركة القيادة، لأن حرارة كل جزء منبعثة منه، ومن الكل الفكري الشائع في الحزب، والمتصل بهذه الأجزاء اتصالاً طبيعياً.

٩- يسير الحزب المبدئي في ثلاث مراحل، حتى يبدأ تطبيق مبدئه في مجتمعه:

أولاً: مرحلة الدراسة والتعلم لإيجاد الثقافة الحزبية.

ثانياً: مرحلة التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يصبح المبدأ عاما ناتجاً عن وعي، وتعتبره الجماعة كلها مبدأها،

حتى تدافع عنه جماعياً، وفي هذه المرحلة يبدأ الكفاح بين الأمةوبين من يقفون حائلاً دون تطبيق المبدأ من الاستعمار ومن يضعهم أمامه من الفئات الحاكمة والظلاميين والمضبوعين بالثقافة الأجنبية، لأنها تعتبر المبدأ مبدأها، والحزب قائداً لها.

ثالثاً: مرحلة تسلم زمام الحكم عن طريق الأمة تسلماً كاملاً، حتى يتخذ الحكم طريقة لتطبيق المبدأ على الأمة. ومن هذه المرحلة تبدأ الناحية العملية في الحزب في معترك الحياة، وتظل ناحية الدعوة للمبدأ العمل الأصلي للدولة والحزب، لأن المبدأ هو الرسالة التي تحملها الأمة والدولة.

١٠- أما المرحلة الأولى فهي المرحلة التأسيسية، وهي اعتبار جميع أفراد الأمة سواء في أنهم خالون من كل ثقافة، والبدء بتثقيف من يريدون أن يكونوا أعضاء في الحزب بثقافته، واعتبار المجتمع كله مدرسة للحزب، حتى يخرج الحزب في أقصر مدة الفئة التي تكون قادرة على الاتصال بالجماعة للتفاعل معها.

على أنه ينبغي أن يعلم أن هذا التثقيف ليس تعليما، وأنه يختلف عن المدرسة اختلافاً كلياً، ولذلك لا بد أن تكون الثقافة للحلقات سائرة على اعتبار أن المبدأ هو المعلم، وأن العلم والثقافة التي تؤخذ إنما يقتصر فيها على المبدأ، وعلى ما

يلزم لخوض معترك الحياة، وأن تؤخذ للعمل بها حالاً في معترك الحياة.

ولذلك لا بد أن تكون الثقافة عملية، أي أن تؤخذ للعمل بها في الحياة، ولا بد أن يوضع حائل كثيف بين الذهن وبين الناحية العلمية، حتى لا تتجه الثقافة الحزبية اتجاه الثقافة المدرسية العلمي.

١١- الحزب هو تكتل يقوم على فكرة وطريقة، أي على مبدأ آمن أفراده به. ويشرف على فكر المجتمع وحسه ليسيرهما في حركات تصاعدية. ويحول بين المجتمع وبين الانتكاس في الفكر والحس. وهو مدرسة الأمة التي تثقفها وتخرجها، وتدفعها إلى معترك الحياة العالمية. وهو المدرسة الحقيقية، ولا تغني عنه المدارس مهما تعددت وكثرت وشملت. إلا أن هناك فرقاً بين الحزب والمدرسة لا بد من إدراكه. وهذا الفرق واضح في عدة نقاط منها:

أ- ان المدرسة مهما كان برنامجها صحيحاً، لا تضمن إنهاض الأمة دون أن يكون هنالك حزب يقوم في المجتمع كمدرسة له، لأن المدرسة من طبيعتها مهما تحررت لا بد أن تكون رتيبة، فهي تقوم على شكل خاص، وتتخذ صفة خاصة، وبهذا تفقد القدرة على التشكل تبعاً لتشكل الوقائع. وإذا أريد لها أن تتشكل، يحتاج تشكلها إلى عملية معقدة، وزمن

معين، حتى يحدث التكيف، وإعدادها يكون على أساس ثابت لا يتشكل.

ب- ان الحزب إذا كان قائماً على برنامج صحيح يكون فيه ما يلي:

١- الحيوية، فهو ينمو.

٢- التطور، فهو ينتقل من حال إلى حال.

٣- الحركة، فهو يتنقل في كل ناحية من نواحي المجتمع، وفي كل جزء من أجزاء البلاد.

٤- الحس، فهو يحس ويشعر بكل ما يحصل في المجتمع، ويؤثر فيه.

ويكون اعداده على أساس تشكل الحياة والمشاعر.

ففيه تطور دائم، وفيه تغير مستمر، ولا يسير على طريقة رتيبة، لأنه يسير مع الحياة وأشكالها، ليشكلها بجوه الإيماني، ويغير الواقع ويكيفه حسب المبدأ.

ج- المدرسة تقوم على تثقيف الفرد وتهذيبه وتعليمه باعتباره فرداً معيناً. وهي بالرغم من كونها جماعة صغيرة، إلا أنها فردية من ناحية تعليمية. ولذلك تكون نتائجها فردية لا جماعية. ولو فرضنا أن مدينة سكانها عشرة آلاف نسمة، فيها مدارس تضم ألف تلميذ، فإنها لا تستطيع أن تحدث أي نهضة جماعية في هذه المدينة.

د- الحزب يقوم على تربية الجماعة وتثقيفها بوصفها جماعة واحدة، بغض النظر عن أفرادها، وهو لا ينظر إلى هؤلاء الأفراد الذين فيها باعتبارهم أفراداً معينين، وإنما ينظر إليهم باعتبارهم أجزاء الجماعة، فهو يثقفهم جماعياً ليصلحوا لجزئية الجماعة لا لفرديتهم. ولذلك كانت نتائج الحزب جماعية لا فردية. فلو فرضنا أن جماعة في قطر سكانه مليون نسمة، وفيه حزب عدد أعضائه مائة شخص، فإنه يحدث في هذا القطر نهضة تعجز عنها المدرسة مهما بذلت من جهد وأمضت من زمن وخرجت من تلاميذ.

هـ- تقوم المدرسة على تهيئة الفرد ليؤثر في الجماعة التي يعيش فيها، وهو لا يستطيع أن يؤثر إلا جزئياً، لأنه يحتل جزءاً شعورياً ضعيف الأثر في إيقاظ الفكر.

و- يقوم الحزب على تهيئة الجماعة لتؤثر في الفرد وهي تستطيع أن تؤثر كلياً، لأن شعورها قوي، موقظ، قادر على إيقاظ الفكر. ولذلك يكون أثرها على الأفراد قوياً، وتبعث فيهم النهضة بأقل جهد وأقصر زمن، إذ أن الذي يوقظ الفكر هو الشعور وبتفاعلهما تحصل الحركة للنهضة.

ز- ويتلخص الفرق بين الحزب والمدرسة في ثلاث نقاط:

١. ان المدرسة تكون رتيبة غير قادرة على التشكل، في حين أن

الحزب يكون متطوراً غير رتيب، وقادراً على التشكل في الحياة فهو يشكلها بجوه الإيماني.

٢. ان المدرسة تثقف الفرد ليؤثر في الجماعة، فتكون نتائجها فردية، في حين أن الحزب يثقف الجماعة، لتؤثر في الفرد فتكون نتائجها جماعية.

٣. إن المدرسة تهيء الجزء الشعوري في الفرد، ليؤثر في مشاعر الجماعة، فلا يستطيع التأثير فيها، ويعجز عن إيقاظ فكرها، في حين أن الحزب يهيء الكل الشعوري في الجماعة، ليؤثر في مشاعر الأفراد، فيستطيع التأثير فيهم، ويكون قادراً على أن يوقظ أفكارهم إيقاظاً تاماً.

١٢. في هذه المرحلة لا بد من دوام إدراك أن المجتمع بأكمله هو المدرسة الكبرى للحزب، مع دوام إدراك الفرق الشاسع بين المدرسة وبين الحزب في حلقاته الثقافية.

أما إدراك أن المجتمع بأكمله مدرسة الحزب، فهو لأن وظيفة الحزب في هذه الفترة هي بعث العقائد الصادقة، وإيجاد المفاهيم الصحيحة. وهذا لا يتأتى إلا بعملية مدرسية، يكون مبدأ الحزب هو المعلم، وثقافته هي المادة التي تدرس، وهذا المبدأ وهذه الثقافة يتمثلان فيمن تجسد فيهم المبدأ، فهم الأستاذ المباشر في المجتمع، وتكون اللجان المحلية وحلقاتها صفوفه، ويكون المجتمع كله هو المدرسة، وهذه العملية المدرسية تقتضي ممن يكونون أعضاء في الحزب، ويتبنون مفاهيمه، دراسة عميقة،

وفهمـا صـحيحاً، ومـذاكرة لثقافتـه الحزبيـة في كـل وقـت، واستظهاراً لدستوره، وللأحكام الهامة، والقواعـد العامـة الـتي يتبناها. وذلك يحتاج إلى دراسة مدرسية. ومن هنا كان لا بد من الحرص على هذه الناحية مع كل من يدخل في الحزب، بغـض النظر عما إذا كان مثقفاً ثقافة جامعية أو ابتدائية أو فيه استعداد للتثقف. وكل تساهل في هذه الثقافة مع أي فرد يبقى هذا الفرد خارج نطاق الحزب، ولو انتسب إليه، وربما نتج عن ذلك ضرر في الجهاز العام.

ولا بد أن يوضع حاجز كثيف بين العمل وبـين الحـزب في هذه المرحلة، قبل أن يوجد عنده الأشخاص المثقفـون ثقافـة حزبية، ولهذا كانت هذه المرحلة مرحلة ثقافية ليس غير.

وأما إدراك أن هنالك فرقاً بين المدرسة وبـين الحـزب في الثقافة فذلك لـئلا تنقلـب الثقافـة الحزبيـة إلى ثقافـة مدرسـية، فيفقد الحزب فعاليته. ولذلك لا بد أن يوضع حاجز كثيف بين المنتمي إلى الحزب وبين الناحية العلمية في الثقافة الحزبيـة، وأن يكون ملاحظاً أن الثقافة الحزبية هي لتغيير المفاهيم، وللعمل في معترك الحياة، ولحمل القيادة الفكرية في الأمة.

ولا يجـوز أن ينـدفع صـاحبها في الناحيـة العلميـة. وإذا كانت لديه حاجة علمية فمحلها المدرسة وليس الحـزب، ومـن الخطر الاندفاع مع الثقافة نحو الناحيـة العلميـة. لأنهـا تسـلب خاصية العمل، وتؤخر الانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحله.

١٣- المرحلة الثانية هي مرحلة التفاعل مع الأمة، وهي التي يصحبها الكفاح. وتعتبر هذه المرحلة دقيقة، والنجاح فيها دليل على صحة تكوين الحزب. والإخفاق فيها دليل على أن فيه خللا يجب إصلاحه. وهي مبنية على المرحلة التي قبلها. ولذلك كان النجاح في المرحلة الأولى شرطاً أساسياً للنجاح في المرحلة الثانية. إلا أن مجرد النجاح في المرحلة الأولى ثقافياً ليس كافياً وحده للنجاح في هذه المرحلة، بل لا بد أن يكون النجاح الثقافي معروفاً عند الناس، أي أن يعرف الناس أن هناك دعوة، وأن يعرفوا عن العضو أنه يحمل دعوة، كما أنه لا بد أن تكون الروح الجماعية قد تكونت أثناء التكوين الثقافي في الحلقات، واتصال الأعضاء في المجتمع الذي يعيشون فيه، ومحاولتهم التأثير فيه، حتى إذا انتقلوا للمرحلة الثانية كان الاستعداد الجماعي موجوداً. ولذلك يسهل عليهم التفاعل مع الأمة.

١٤. ان عضو الحزب لا ينتقل من دور الثقافة إلى دور التفاعل إلا بعد أن يكون قد نضج ثقافياً، نضجاً جعل منه شخصية إسلامية، بتجاوب نفسيته مع عقليته. قال عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"، وأن يعرف الناس عنه أنه يحمل دعوة إسلامية. وأن تكون الميول الجماعية قد قويت فيه وظهرت عليه، بوجوده في الحلقات. واتصاله بالمجتمع، بحيث تكون قد قلعت منه العزلة.

لأن العزلة مزيج من الجبن واليأس، لا بد من قلعها من الأفراد والمجتمع.

١٥. إن الحزب ينتقل من دور الثقافة إلى دور التفاعل انتقالاً طبيعياً، بحيث إذا أراد أن ينتقل قبل الأوان لا يقدر، وذلك أن دور الثقافة تستكمل فيه نقطة الابتداء، إذ الثقافة تجعل المبدأ يتجسد في أشخاص، وتجعل المجتمع يحس بالدعوة وبالمبدأ إحساساً واضحاً. ومتى تم هذا التجسيد للمبدأ في الأشخاص، أي غرسه في نفوسهم، وتم معه الإحساس في المجتمع على المبدأ، تكون قد اجتازت الدعوة نقطة الابتداء، وصار لا بد أن تنتقل إلى نقطة الانطلاق. وحتى يبدأ الحزب السير في نقطة الانطلاق، لا بد أن يبدأ بمخاطبة الأمة. ولأجل أن يبدأ بمخاطبتها يجب أن يبدأ بمحاولة مخاطبتها أولاً، حتى إذا نجحت محاولته هذه، تحول إلى المخاطبة مباشرة. ومحاولة المخاطبة إنما تكون بالثقافة المركزة في الحلقات، وبالثقافة الجماعية للناس في كل مكان مستطاع، وفي كشف خطط الاستعمار، وفي تبني مصالح الأمة. فإذا استطاع أن ينجح في هذه الأشياء الأربعة معاً تحول إلى مخاطبة الأمة، وانتقل إلى نقطة الانطلاق انتقالاً طبيعياً. وكان انتقاله هذا إلى نقطة الانطلاق هو الذي ينقله نقلاً طبيعياً من المرحلة الأولى، التي هي دور الثقافة، إلى المرحلة الثانية، التي هي دور التفاعل، ويجعله يبدأ التفاعل مع الأمة في أوانه بدءاً طبيعياً.

١٦. ان هذا التفاعل مع الأمة ضروري لنجاح الحزب في مهمته، لأنه مهما كثر أعضاء الحزب في الأمة، ولم يتفاعلوا معها لا يستطيعون أن يقوموا بعمل وحدهم، مهما كانت قوتهم، إلا إذا سارت الأمة معهم. ولا يستطيعون أن يسوقوا الأمة معهم إلى العمل، ولا تسير معهم إلا إذا تفاعلوا معها، ونجحوا في هذا التفاعل. وليس معنى تفاعلهم مع الأمة هو أن يستطيعوا جمع الناس حولهم، بل المراد من التفاعل هو إفهام الأمة مبدأ الحزب، ليكون مبدأها، لأن أصل المبدأ- وهو الإسلام- موجود في الأمة، في تراثها الثقافي والتاريخي، وشعورها الواقعي، إذ ان أحاسيس الأمة تحولت إلى فكر، تبلور في الفئة المختارة، التي يتكون الحزب منها. وكانت قاعدة هذه الأحاسيس (وهي الفكر والعمل من أجل غاية) التعبير الحقيقي للمبدأ. ولذلك يكون المبدأ (أي الإسلام) هو إحساس الأمة الداخلي، ويكون الحزب معبراً عن هذا الإحساس. فإذا كان فصيح التعبير، واضح اللغة، صادق اللهجة، فهمت الأمة المبدأ سريعاً، وتفاعلت مع الحزب، واعتبرت الأمة بمجموعها هي الحزب. والفئة المختارة تحمل قيادة الحركة بالتكتل الحزبي، تلك الحركة التي تسير بها الأمة بقيادة الحزب نحو المرحلة الثالثة، وهي تطبيق المبدأ تطبيقاً انقلابياً، عن طريق الحكم الذي تتولاه هذه الكتلة الحزبية، باعتباره الطريقة الوحيدة لتنفيذ الفكرة أي باعتباره جزءاً من المبدأ.

إلا أن هنالك صعوبات عديدة تقف في وجه هذا التفاعل، فلا بد من معرفتها، ومعرفة طبيعتها، للعمل على التغلب عليها. وهذه الصعوبات كثيرة أهمها ما يلي:

أ- تناقض المبدأ مع النظام الذي يطبق في المجتمع.

إن مبدأ الحزب هو نظام جديد للحياة بالنسبة للمجتمع الحاضر، وهو يناقض النظام الذي يطبق على هذا المجتمع والذي تحكم الناس به الفئة الحاكمة. ولذلك تجد في هذا المبدأ خطراً عليها، وعلى كيانها. ولا بد أن تقف في وجهه وتحاربه، بمختلف الوسائل: بالدعاية ضده، ومطاردة حملة الدعوة، واستعمال الوسائل المادية. ولهذا كان على حملة المبدأ- وهم يعملون للتفاعل مع الأمة بالدعوة لمبدئهم- أن يعتصموا من الأذى بكل ما يستطيعون، وأن يجابهوا الدعايات المضللة، بشرح دعوتهم، وأن يتحملوا كل مشقة في هذا السبيل.

ب- ومن الصعوبات اختلاف الثقافة.

تكون في المجتمع ثقافات مختلفة، وتكون في الأمة أفكار متباينة، إلا أنه يكون لها إحساس واحد. وتكون الثقافات المتعددة، ولا سيما الثقافات الاستعمارية، تعبيراً معكوساً عن هذه الأحاسيس، في حين أن ثقافة المبدأ، اي الثقافة الإسلامية، تكون تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الأمة. غير ان الرأي العام الثقافي في المجتمع والمنهاج الثقافي في المدارس والمعاهد، وسائر الأمكنة الثقافية، يكون سائراً مع الثقافة الأجنبية. وكذلك

تكون سائر الحركات السياسية والثقافية سائرة مع الثقافة الأجنبية. ولهذا لا بد للحزب في ثقافته من الدخول في دور من الكفاح مع الثقافات الأخرى، والأفكار الأخرى، حتى يظهر للأمة التعبير الصحيح عن أحاسيسها وشعورها، فتسير معه. ومن هنا كان لا بد أن يكون في هذا الدور تصادم بين الحزب في ثقافته وفكره، وبين غيره من الثقافات والأفكار الأخرى. وهذا تصادم بين أبناء الأمة، ولذلك لا يأخذ دور الجدل العقيم، بل تسير جماعة الحزب على طريق رسم الخط المستقيم عند الخط الأعوج. ولا يدخلون في جدل عقيم مطلقاً، لئلا يؤدي إلى الأنانية التي تعمي وتصم عن الحقيقة، بل تشرح أفكار الحزب، وتبين ما في الأفكار الأخرى من زيف، وما في الثقافات الأخرى من باطل، وما في نتائجها من أخطار. وحينئذٍ تنصرف الأمة عنها، وتتجه نحو ثقافة الحزب وفكره، بل ينصرف عنها أيضاً أصحابها، بعد أن يظهر لهم زيفها، إذا كانوا من المخلصين الواعين النزيهين. إلا أن هذه العملية من أشق العمليات على الحزب. ولذلك كان إحداث التفاعل مع الأمة في المكان الذي تكثر فيه الثقافة الأجنبية أكثر صعوبة من الأمكنة التي تقل فيها هذه الثقافة، وكانت قابلية النهضة في الأمكنة التي تقل فيها نسبة المثقفين ثقافة أجنبية أكثر من الأمكنة التي ترتفع فيها هذه النسبة. ولذلك كان على الحزب

أن يكون واعياً على الجماعة التي يعمل للتفاعل معها، ليسير في الطريق المناسبة لها.

ج- ومن الصعوبات وجود الواقعيين في الأمة.

وذلك أنه يوجد من جرّاء الثقافة الأجنبية، والتسميم الأجنبي، ومن جرّاء الجهل، فئتان تمثلان الواقعية في الأمة.

أما الفئة الأولى فهي الفئة الواقعية، التي تدعو إلى الواقع، وإلى الرضا بالواقع، والتسليم به، كأمر حتمي، لأنها تتخذ الواقع مصدر تفكيرها وتأخذ منه حلول مشاكلها. وطريق التغلب على صعوبتها هو محاولة التعمق معها في البحث، حتى ترى وتدرك أن الواقع إنما يتخذ موضع التفكير لتغييره، وبذلك يمكن أن ترجع عن فكرها.

وأما الفئة الواقعية الثانية فهي فئة الظلاميين التي تأبى أن تعيش في النور، لأنها ألفت الحياة في الظلام وتعودت التفاهة والسطحية، وأصيبت بمرض الكسل الجسمي والكسل العقلي وجمدت على القديم الذي وجدت عليه آباءها لمجرد كونه قديماً، ولذلك فهي واقعية حقيقة، لأنها من جنس الواقع وهي جامدة فكراً. ولذلك كانت في حاجة إلى معاناة أكثر. وطريق التغلب على صعوبتها هو محاولة تثقيفها، والاجتهاد في تصحيح مفاهيمها.

د- ومن الصعوبات التي تقف في وجه الدعوة ارتباط الناس بمصالحهم. وذلك أن الإنسان يرتبط بمصالحه الشخصية،

وأعماله اليومية، ويرتبط في نفس الوقت بالمبدأ. وقد يبدو أن هذه المصالح تتعارض مع الدعوة للمبدأ. ولذلك يحاول التوفيق بينهما. وللتغلب على هذه الصعوبة، يجب على كل من يعتنق المبدأ أن يجعل الدعوة والحزب مركز الدائرة الذي تدور حوله مصالحه الشخصية، فلا يجوز أن يشتغل في أي عمل يتناقض مع الدعوة، ولا في أي عمل ينسيه الدعوة ويعوقه عنها. وبذلك يكون قد نقل الدعوة من دورانها حول مصالحه إلى دوران مصالحه حول محورها.

هـ- ومن الصعوبات التي تقف في وجه الدعوة التضحية بشؤون الحياة الدنيا من مال وتجارة ونحوهما في سبيل الإسلام وحمل دعوته. وللتغلب على هذه الصعوبة يذكر المؤمن بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

ويكتفى بهذا التذكير ويترك له الخيار في التضحية بهذه الشؤون ولا يستكره على شيء. كتب عليه الصلاة والسلام كتاباً لعبد الله بن جحش حين بعثه على رأس سرية ليترصد قريشاً في نخلة بين مكة والطائف، وقد جاء في ذلك الكتاب "ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وأمض لأمري فيمن تبعك".

و- وقد يتبادر أن من الصعوبات الاختلاف المدني في المجتمعات، وذلك أن الأمة تكون فيها أوساط المدن غير أوساط القرى، وغير أوساط البدو، وتكون المدنية في المدينة غيرها في

القرية، وهي في القرية غيرها في مضارب البدو والخيم. ولذلك قد يوحى هذا الاختلاف في الأشكال المدنية للحزب فكرة الاختلاف في التثقيف، أو في التوجيه المبدئي.

وهذا من أخطر الأشياء لأن الأمة مهما اختلفت فيها الأشكال المدنية هي أمة واحدة، إحساسها واحد، ومبدؤها واحد، ولذلك تكون الدعوة فيها واحدة، لا فرق بين مدينة وقرية، ويكون العمل للتفاعل معها واحداً.

١٧- يتعرض الحزب في هذه المرحلة (مرحلة التفاعل مع الأمة) إلى خطرين: خطر مبدئي (أي على المبدأ)، وخطر طبقي.

أما الخطر المبدئي فيتأتى من تيار الجماعة، والرغبة في استجابة طلباتها الآنية الملحة، ويتأتى من تغلب الرواسب الموجودة في آراء جماعة على الفكرة الحزبية.

وذلك أن الحزب حين يخوض غمار الحياة في المجتمع يتصل بالجمهور للتفاعل معه، ولقيادته، وفي الوقت الذي يكون فيه الحزب مزوداً بمبدئه، يكون الجمهور قد اجتمعت فيه متناقضات من أفكار رجعية قديمة، ووراثات عن الجيل الغابر، ومن أفكار أجنبية خطرة، وتقليد للكافر المستعمر. فحين يقوم الحزب بعملية التفاعل مع الجمهور، يزوده بآراء الحزب وأفكاره، ويسعى جاهداً لتصحيح مفاهيمه، ولبعث العقيدة

الإسلامية فيه، ولإيجاد الأجواء الصادقة، والعرف العام الصالح، بمفاهيم الحزب. وهذا يحتاج إلى الدعوة، وإلى الدعاية، حتى يجمع الأمة حوله على أساس المبدأ بصورة تقوي في الأمة الإيمان بالمبدأ، وتبعث فيها الثقة بمفاهيم الحزب، والاحترام والتقدير له، وتحملها على الاستعداد للطاعة وللعمل. وحينئذٍ يكون واجب الحزب الإكثار من شبابه المؤمنين الموثوق بهم بين الأمة، ليظلوا قابضين على زمامها، كالضباط في الجيش. فإذا نجح الحزب بهذه المرحلة من التفاعل قاد الأمة إلى الغاية التي يريدها، ضمن حدود المبدأ، وأمن خروج القطار عن الخط.

أما إذا قاد الحزب الجمهور قبل أن يكتمل التفاعل معه، وقبل أن يوجد الوعي العام عند الأمة، فإن قيادته تكون لا بأحكام المبدأ وأفكاره، بل بتشخيص ما يجيش في نفس الأمة، وبإثارة عاطفتها، وتصوير مطالبها قريبة في متناول يدها.

وبهذا يسقى الحزب الجمهور بإثارة عاطفته، وتصوير مطالبه قريبة منه، خمرة معتقة سريعة التأثير، ويعاود سقيه حتى يستسلم له، فيسوقه سوقاً جمعياً، ويكون حينئذٍ سائراً مع الحزب بعاطفته، لا بعقله ووعيه، ويكون أعضاء الحزب هم القادة لهذا الجمهور من الأمة.

إلا أن هذا الجمهور لا تنعدم منه في هذه الحالة مشاعره

الأولى كالوطنية والقومية والروحية الكهنوتية، وتكون الحالات الجماعية مثيرة لها، فتظهر حينئذٍ فيه العنعنات التافهة كالطائفية والمذهبية، والأفكار القديمة كالاستقلال والحرية، والنعرات الفاسدة كالعصرية والعائلية، فيبدأ التناقض بينه وبين الحزب، لأنه يفرض لنفسه مطالب لا تتفق مع المبدأ، وينادى بغايات آنية مضرة للأمة، ويتحمس لهذه المطالب، ويزداد هياجه لتحقيقها، وتظهر فيه نعرات متعددة. وفي هذه الحال يكون موقف الحزب بين نارين: إحداهما التعرض لغضب الأمة ونقمتها، وهدم ما بناه من السيطرة على الجماعة.

والأخرى التعرض للانحياز عن مبدئه والتساهل فيه، وكلا الشيئين فيه خطر عليه. ولذلك كان على رجال الحزب إذا تعارض الأمر بين الجمهور والمبدأ أن يتمسكوا بالمبدأ، ولو تعرضوا لنقمة الأمة، لأنها نقمة مؤقتة. وثباتهم على المبدأ سيعيد لهم ثقة الأمة. وليحذروا من مخالفة المبدأ والحيد عن جوهره قيد شعرة، لأنه هو حياة الحزب، وهو الذي يضمن له البقاء. ولاتقاء مثل هذه المواقف الحرجة، ولدفع مثل هذا الخطر، على الحزب أن يجتهد في سقي الأمة بمبدئه، والمحافظة على وضوح أفكار الحزب ومفاهيمه، والعمل على بقاء أجوائها مسيطرة على الأمة. ويسهل ذلك العناية بفترة التثقيف

عنايـة فائقـة، والاهتمـام بالثقافـة الجماعيـة اهتمامـاً زائـداً، والحرص على كشـف خطـط الاسـتعمار كشـفاً دقيقـاً، ودوام السـهر علـى الأمـة ومصـالحها، والانصـهار بالمبـدأ والحـزب انصهاراً تاماً، ودوام التنقيب في أفكار الحزب ومفاهيمه، لبقائها صافية، وبذل أقصى جهد مستطاع في ذلـك كلـه، مهمـا كلـف هذا من جهد وعناء.

وأما الخطر الطبقي فإنه يتسرب إلى رجال الحزب، لا إلى الأمة. وذلك أنه حين يكون الحزب يمثل الأمة أو اكثريتها تكون له مكانة مرموقة، ومنزلة مـوقرة، وإكبـار تـام مـن قبـل الأمـة والخاصة من الناس. وهذه قد تبعث في الـنفس غـروراً، فـيرى رجال الحزب انهم أعلى من الأمة، وأن مهمتهم القيادة، ومهمة الأمة أن تكون مقودة، وحينئذٍ يترفعون علـى أفـراد الأمـة، أو على بعضهم، دون أن يحسبوا لذلك حسـاباً، وإذا تكـرر ذلـك صارت الأمة تشعر بـأن الحـزب طبقـة أخـرى غيرهـا، وصـار الحزب يشعر كذلك بالطبقيـة، وهـذا الشـعور هـو أول طريـق انهيار الحزب، لأنه يضعف حرص الحزب على ثقة البسطاء من الجمهور، ويضعف ثقة الجمهور بـالحزب، وحيئـذٍ تبـدأ الأمـة تنصرف عن الحزب.ومتـى انصـرفت الأمـة عـن الحـزب فقـد انهار، واحتاج إلى بذل جهد مضاعف، حتى تعود له هذه الثقة،

ولذلك كان لزاماً على رجال الحزب أن يكونوا كأفراد الأمة البسطاء، وأن لا يشعروا بأنفسهم إلا أنهم خدمة للأمة، وأن وظيفتهم الحزبية هي خدمة الأمة، لأن ذلك يوجد فيهم المناعة، وينفعهم لا بدوام ثقة الجمهور فحسب، بل ينفعهم أيضاً في المرحلة الثالثة حين يتولون الحكم لتنفيذ المبدأ، فيظلون- وهم حكام- خدمة للأمة، حتى يتسنى لهم تنفيذ المبدأ.

١٨- المرحلة الثالثة، هي مرحلة الوصول إلى الحكم.

إن الحزب يصل إلى الحكم عن طريق الأمة، وينفذ المبدأ دفعة واحدة، وذلك ما يسمى بالطريقة الانقلابية. وهذه الطريقة لا تقبل الاشتراك في الحكم مجزءاً، بل تأخذ الحكم كله، وتتخذه طريقة لتطبيق المبدأ، وليس غاية. وتنفذ المبدأ الإسلامي تنفيذاً انقلابياً، ولا تقبل طريقة التدريج مهما كانت الظروف.

ومتى طبقت المبدأ تطبيقاً كاملاً شاملاً كان عليها أن تحمل الدعوة الإسلامية، فتجعل في ميزانية الدولة باباً خاصاً للدعوة وللدعاية، وتتولى الإشراف على هذه الدعوة من ناحية دولية أو ناحية حزبية حسب مقتضيات الظروف. وبالرغم من وصول الحزب إلى الحكم فإنه يبقى حزباً سائراً، ويبقى جهازه قائماً، سواء أكان أعضاؤه في كراسي الحكم أم لم يكونوا.

ويعتبر الحكم أول خطوة عملية لتنفيذ مبدأ الحزب في الدولة، والسعي لتنفيذه في كل جزء من أجزاء العالم.

هذه هي الخطوات التي يسير فيها الحزب في معترك الحياة، لينقل الفكرة إلى الدور العملي. وبعبارة أخرى لينقل المبدأ إلى معترك الحياة باستئناف الحياة الإسلامية، ولينهض بالمجتمع، ويحمل الدعوة إلى العالم. وحينئذٍ يبدأ الحزب الدور العملي، وهو الدور الذي وجد من أجله. وعلى ذلك فالحزب هو الضمانة الحقيقية لإقامة الدولة الإسلامية ولبقائها ولتطبيق الإسلام، وإحسان تطبيقه، واستمرار هذا التطبيق، وحمل الدعوة الإسلامية للعالم، لأنه بعد أن يقيم الدولة، يكون رقيباً عليها، محاسباً لها، قائداً الأمة لمناقشتها، ويكون في نفس الوقت حاملاً الدعوة الإسلامية في البلاد الإسلامية، وفي غيرها من باقي أجزاء العالم.